

## تطور الملابس

لحضرة صاحب العزة محمود حسيب بك

مدير البحيرة

إن بحث موضوع تطور الملابس لأهم من أن يظهر لأول وهلة إذ أن الملابس يختلف عما يعبر عنه بالزى، فالأول مقصود به كساء الجسم بأية وسيلة بصرف النظر عن تأثير شكله على الغير، بينما الثانى مقصود به إشباع غريزة حب الظهور بسبب ما تميل إليه النفس البشرية من العجب والحيلاء وحب الظهور بمظهر جذاب، وهذه التفرقة لا تستند إلى أساس علمى، يتبين إلا أنها ظاهرة طبيعية محققة. وليست المودة التي هي استحداث الزى وإبتكاره من طبيعة أخلاق الانسان وفطرته إنما هي مظهر سببه اختلاف الأفكار في سائر الأوقام، فالمرأة المسلمة تستر كل جسمها ما عدا الوجه والكفين بينما المرأة السومطرية تخفى جسمها إلى الركبة، والصينية تعنى بضغط قدميها، وفي أواسط آسيا يظهرون الصرة وفي تاهيتي وتجانيقا يطرحون الملابس ظهريا ويترنون بالوثم وعند الكاريبيين يعنون بحزام الوسط بينما في الاسكا يهتمون بصمامات الفم المعدنية. ولييان مدى تباين الأفكار بشأن الزى وضع "باسكال" فرضا قال فيه: "لو أن أحد شيوخ فرغانة الأندلسية من المسلمين القدماء بعث الآن وشاهد مناك بنتا ونسائنا العارية في حلقات الرقص لعرته الدهشة لسفورهن ولأشفق على هذا إبليل من غضب الله" وقال في نظريته عن الملابس "إن هناك تباينا حتى بين لأقوام التي تعيش في عصر واحد، فاليابانى مثلا لا يرى غضاضة من استحمام الجنسين معا مجردين من الملابس بينما الانكليزى يحتم حتى في الحمامات غير المختلطة ارتداء ثوب الاستحمام المتعارف عليه، بل إن كثيرا منهم يشتمون العرى الذى يلجأ اليه الفنانون والمثالون في عملهم ولوحاتهم" ويستطرد باسكال في نظريته فيقول: "إن الاختلاف حتى في نفس القوم في الجيل الواحد وفي الزمان والمكان في البلد الواحد، فالمرأة الأوروبية مثلا يجوز لها أن تكشف بعض أجزاء جسمها في المرقص ودور المسارح "السوارية" بينما لا تفعل ذلك في الطريق أو أثناء النهار وأيضا لا تستبج لنفسها أن تبدو في المدينة بثوب الحمام الذى ترتديه على الشاطئ.

أما المودة أو استحداث الزى فليست من المسائل العويصة العسيرة الفهم. وللكشف عن أصولها يجب أن نرجع إلى القبائل التي ما زالت على الفطرة في أفريقيا وأمريكا الجنوبية حيث تقل الملابس إلى أبعد حد فانها هنالك باقية على فطرتها تصنع من جلود الحيوان، وتتخذ

من أوراق وفروع الأشجار وتستعمل لمجرد الوقاية من الحشرات. أما المغزول منها فغير معروف عندهم .

وكثير من أشكال الملابس في معظم العصور روعي فيه جذب انتباه كل جنس إلى أجزاء جسم الجنس الآخر، وهو ما يعبر عنه بالإشارة إلى الهدف المستر، كما روعي فيها بالتالي تمييز الكلا الجنسين عن الآخر، وإن تطورها يتجه دائماً إلى لفت النظر إلى الأجزاء المقصودة عن طريق إخفائها وذلك أكثر تحريكاً للماطفة من أى مؤثر آخر حتى لتبدو بعض الملابس أقل احتشاماً من العرى الكامل نفسه، وأخيراً عندما تفقد الملابس كل تأثير لها يتجه الفكر ثانية إلى العرى الجزئى .

وهناك ملاحظة أعتنى بذكرها هي : إن أول مرة يرتدى فيها أحد أفراد قبائل العراة الملابس يبدو عليه الارتباك الذى نشاهده على أوربي اضطروا إلى خلع جميع ملابسه والسير تارياً وسط الناس - وهذه الحقيقة مضافة إلى ما سبق ذكره تبين لنا أن المودة بنا هي إلا شعور جديد للظهور بمظهر كثير الجاذبية فوق المعتاد، وأن المودة هي نتيجة للبلبس وليست سبباً له ، وليس انتفاء تأثير الجوارح إلا سبباً ثانوياً في الملبس بينما السبب الأول هو الرغبة المرأة والرجل في أن يجذب كل منهما الآخر .

ومن يتأمل في الأطوار التي مر بها الانسان من عهد القطرة إلى الزمن الذى فكر فيه في الملابس يلاحظ أنه في الدور الأول منها قد عمد إلى ضغط قدمه وتصغيرها كما لا يزال يفعل الصينيون ذلك إلى الآن ، كذلك عمد إلى تصغير خصره كما لا يزال يفعل الأوربيون أيضاً ، وكان الدافع الأول إلى ذلك هو الرغبة في الظهور بمظهر جذاب مغر ، وفي الدور الثانى بدأ الانسان يشكر في المزيد من الزينة والزخرف وانتهى به الأمر إلى تزيين جسمه بالوشم والرسوم ، منها ما قصد به الزينة فقط ، ومنها ما اتخذ سبيلاً للإخفاء ما يجسمه من الجروح والندوب والعيوب، وفي الدور الثالث بدأ الانسان يضيف إلى زينته أدوات خارجية للزينة فوضع الأقراط في أذنيه والعقود في رقبته وصف الريش في شعره وتمنطق بالزيينات في خاصرته . وما يجدر ذكره أن الرجل في هذه العهود الأولى كان أكثر زينة من المرأة وأن الملابس حتى القليل الذى كان موجوداً منها لم يكن يظهر إلا في حفلات الرقص والطعام .

وقد لعب المناخ دوراً في تطور الملابس ، ففي المناطق الشديدة البرودة عنى الانسان بإخفاء جسمه كله انتفاء للبرد بينما في المناطق الأخرى اكتفى بلباس بسيط يستر عورته عن العيون ، لذا نشأت في تاريخ الانسان فكرة الاكتفاء بلباس قصير يستر الجسم من البطن إلى الركبة ، ويجعلوه مما كيا لشكل الجسم في العصور التالية بدل الاكتفاء بقطعة قماش يلفون بها هذا الجزء مرة أو مرتين ، بل يقرر الدكتور ث. ه. ستراتز أن المرأة ارتدت هذا السروال القصير في بعض العصور وخاصة السنغاليات وكانت المرأة منهم تقوم بأعمال تريد على متوسط قوتها كما هو في بلجيكا ، إذ تعمل في المناجم ، وفي سويسرا إذ تعمل في استخراج البترول والرى ، وبذلك بدأت الملابس تتجه مراعاة المناخ والعوامل الجوية إلى جانب التائق والزينة .

ولقد كانت الملابس في عهد الآشوريين والبابليين حوالي (٣٠٠٠٠ - ٢٠٠٠٠) قبل الميلاد تتألف من ثوب يغطي أحد المنكبين ويترك الآخر عاريا ويتلف حول الجسم وليس به أي منحنى ويكشف نصف صدره تحت منكبته العاري كما يكشف عن جزء من الساق المقابلة لهذا المنكب من الجهة الأخرى، فكانه أحرام قصيرة، ويزين رأسه بضفيرة من الليف يعصب بها رأسه وجبهته، وتعتمد النساء إلى وضع ضفيرتين أو أكثر ويرتدين ثوبا يغطي كل الجسد بلا أكمام، وكان رجال الدين يخلقون رؤسهم كما يفعل ذلك ملوكهم وعظماؤهم وكانوا يلبسون ما يشبه القبعات وتلك هي شارة العظمة والبلطان عندهم كما أيد بعض الباحثين ذلك بأن الملابس كانت في أحد أطوارها شارة للقبائل وعظمتها، وكان الآشوريون يزينون بها آلهتهم الحجرية ثم تدرجوا منها إلى إحاطتها بقماش جعلها شديدة الشبه بالعمامة، أما المحاربون فيرتدون قبعات بدون حافة من النحاس تغطي كل الرأس وكانت قبعات الملوك الحربية تصنع من الذهب وهي أشبه بالخوذ إلا أنها أطول منها وأكثر انسدادا على الوجه بقصد حمايته. وكانت النساء تزيد على الرجال في تصفيف شعورهن ووضع حزام في خصورهن ورباطات للرأس ومشابك للشعر ونقل البابليون كثيرا عن الآشوريين وزادوا عليهم تربية اللحي ثم ارتدوا ما يشبه السروال ثم قلده السامانيون البابليين وارتدوا رداء مماثلا لهم ثم انتقل هذا الرداء أيضا إلى الفارسيين ودلوا شعورهم إلى مناكبهم وأكثروا من العقود، أما المرأة الفارسية فلا يعرف عنها إلا أنها تزينت بالأساور في معاصمها .

أما الملابس في عهد ميمون والعصر البرنزي باليونان فإنها كانت متأثرة بالمناخ حيث مرتفعات الجبال فكانوا يرتدون البنطلونات ملتصقة بسيقاتهم ويربطون عليها حزاما عريضا جدا، وفوق صدورهم قيعبا فضفاضا ويرى ذلك بارزا فيما خلفوه من القماشيل والرسوم وكانوا يشدون الأحزمة على خصورهم حتى تبدو أقل حجما واعتنوا بزر كثة الملابس وخاصة النساء اللاتي كان لباسهن يزيد على الرجال شيئا يشبه العباءة أو الكبود الذي كان مستعملا في كريت في ذلك الوقت وهو نوع من المعاطف القصيرة ويلبسون في أقدامهم الصنادل من الليف أو جلد المشاية، وكانوا يرسلون شعورهم بطولها الطبيعي ولم يكن يقصها إلا رجال الدين بقصد تقصيرها بعض الشيء، أما النساء فكان يقصنها . وفي كنوس ارتدوا على الرأس عمامة تشبه العمامة الإسلامية ومدلاة منها من الخلف قطعة من القماش إلى الظهر - وذلك ما يعرف عندنا بالعدية - كما يفعل ذلك الهنود المسلمون واشتهرت نساء كنوس بمقص الشعر وأكثرن من المشابك والاطواق .

ورداء المرأة لم يكن جميلا في القرون الأولى بالنسبة لأردية الرجال على عكس الحالة الآن فسيحان مغير الأحوال. على أن ذلك يخالف ما ذهب إليه إحدى الباحثات من أن المرأة أغرمت بتجميل نفسها بأنواع المساحيق والاصباغ ومختلف الملابس المزركشة والحلي

حيا في الوصول الى درجة الرجل الذي ميزته الطبيعة ذهن بعميزات أخرى كاللحية والشارب كما ميزت كل ذكر من أنواع الحيوان، فالنديك العرف الجميل، وبذكر الطاووس المنظر الحسن، وللأسد شعره الكثير المتناثر حول رأسه، وكذلك معظم أنواع الذكور من الحيوانات.

أما الملابس المصرية القديمة فقد كان لكل طبقة من قدماء المصريين لباس خاص يتناسب مع مراكز أفرادها، فكانت العامة تنلى شعورها ولا يغطون رؤوسهم، بينما الملوك يلبسون قبعة من الجلد بسيطة المظهر كما ظهر في مقبرة "أبيدوس"، بينما كان النبلاء يضعون على رؤوسهم قبعات من القماش ويحلقون لحاهم، وكانوا يرتدون ثلاثة أثواب بعضها فوق بعض، أحدها ثوب كالفستان الذي ترتديه المرأة أو كالجلباب وفوقه صديرية قصيرة كالي يرتدها الفلاحون في الحضر، وفوق ذلك عباءة مربوطة من عند الرقبة وتسدلى خلف الظهر وبلا أكمام، وفي عصر رمسيس كان الرجال يحلقون رؤوسهم ويستبقون خصلة من الشعر في قمة الرأس، وهذه الطريقة باقية إلى الآن وخصوصا عند بعض الشبان من العرب والفلاحين، بينما كان رجال الدين يحلقون كل رؤوسهم، وفي العصر الذي حكمه الرومان فيه مصر كانوا يتدلون شعرهم على الجانب الأيمن للوجه ويحلقون الجانب الأيسر على النسق المسمى بالمقصوس، وكانت ثياب العمال مكونة من جلباب قصير وأرى أنه لباس يلائم حالة مفلح، واستعمل المصريون الأقراط كالأسبويين، وقد وجدت مع الموميات التي عثر عليها، ولبست النساء ملابس أولية زرقاء اللون عادة تشبه الجلباب تتدلى إلى أسفل القدم، وارتدين قمصانا داخلية أقصر منها قليلا، وفي عصر الهارثة تقدمت المودة عن أي عهد سبق فارتدوا شعورا مستعارة وأطال الرجال شعورهم وتحول الرداء فأصبح يعطى كل الجسم، ولبسوا صدلا من الليف في أقدامهم وقد وجدت مومياء رجل مدفون في مقبرة امحنتب الثاني بهذا الوصف.

وملابس اليونان والرومان يعرف عنها الكثير مما تركوه من تماثيل وخلفوه من لوحات وصور. واشترك اليونانيون والرومان في ارتداء ثياب مماثلة فاستخدموا الثياب المفضضاة المكونة من قيص واسع في وسطه حزام عند الحصر وفوقه عباءة تغطي كل الظهر حتى الركبة وهذا الرداء كان للرجال، أما النساء فلم يستخدمن إلا عباءة صغيرة كالجرمله فوق القميص الطويل حتى القدم، وكان الرجال المتازون أعضاء السناتو "مجلس الشيوخ الروماني" يرتدون حول جبهتهم اشطرة زاهية المنون شارة النبيل والامتياز، وقد صنعوا ملابسهم من الصوف وتفننوا في صبغه بالألوان الزاهية. وفي آخر عهدهم استخدموا القراء في صنع قبعات بسيطة أو معاطف قصيرة ولبست النساء على رؤوسهن ما يشبه العمامة منها أو من القماش وعادت فأصبحت مودة الآن، وفي عصر الامبراطور تراجان الروماني بدأوا بارتداء بنظولونات قصيرة

من الخصر إلى الركبة وقمصان وعباءات واتخذوا الأحذية من الجلد ولم يكن لها كعب وبق لها لرباط الطويل .

وفي القرون الوسطى بدأت تتعدد الأزياء فكان انفلاح الفرنسي يرتدى بنظوننا طويلًا ملتصقا بجسمه وجاكتة طويلة إلى الركبة مفتوحة من الصدر بها زر واحد عند الرقبة وتوسع فتحها كلها اتجهت إلى الوسط ، ولبس الجنود نوعا من المعاطف متصلا به غطاء للرأس وينس المدنيون فوق البنطلون انضيق "ترواكار" عباءة مقلدة إلى ثلاثة أرباع طولهم كماطف السيدات في الوقت الحالى ، وكان الرجل منهم يحمل في يده حقيبة من الجلد تحاكي حقائب السيدات في هذا العصر يضع فيها حاجياته إذ لم تكن الجيوب عرفت بعد . وأما السادة في عصر كارلنجان فكانوا يرتدون قبعات مقواة بلا حافة تشبه الطربوش بدون زر ، مغلطة الألوان ويشبه لباسهم لباس "التربادور" وهو المغنى المتجول في تلك العصور واتجهت النساء إلى ارتداء الملابس الضيقة جدا عند الصدر والخصر والى بشفخ عند الأرداف وتوسع جدا عند القدمين وإلى تجعيد شعورهن وجعلها صفائر صغيرة حول الرأس .

وفي القرن الثالث عشر تفشت الثياب المزركشة والعباءة الطويلة والأحزمة وظهرت مودة الالتحاء ثانية للنبلاء وفي القرن الرابع عشر وجدت الثياب الضيقة من الرجال إقبالا شديدا وهو النوع المسمى "ديموازو" . وفي القرن السادس عشر شاع البنطلون والقميص وفوقهما عباءة ثقيلة نوعا مطرزة ومزركشة وارتدوا أحذية واستبدلوا بالأربطة مشبكا وارتدوا قبعات مزينة بالريش الكبير وكان شكلها يشبه شكل قبعة ناليون إلا إنها مزينة بالريش ، أما الحاربون فكانوا يرتدون أطقم من المعدن تغطى كل الجسم تقريبا كالتى تشاهد في بعض الروايات والقمصان السينائية ، ومن هؤلاء تألفت جيوش الصليبيين ثم تحول ذلك إلى الاكتفاء بالزرد فوق الصدر وحماية باقى الجسم بالدرع الكبير .

وظلت ملابس النساء تزداد ضيقا وكشفا للجسم وزركشة في اللون وزهوا في الشكل وبدأ عرى الظهر والجزء الأعلى للصدر يظهر في ملابس المراقص للنساء في أواخر القرون الوسطى . وفي القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر تفشت مودة الدايتلا حتى صنع منها ثياب كاملة للنساء أحيانا ثم ظهرت الوردية من القماش ذيفت بها القبعات وأطراف الأكمام والبنطلون وتحولت ملابس الرجال إلى قميص وبنطلون ضيق قصير وجورب طويل وحذاء بمشيك وجاكتة مفتوحة وحول العنق ربطة كالكوفية وقبعة نابوليونية ذات ريش زاه ودانيتلا ثم تحولت ربطة العنق إلى شريط عريض يشبه البايون وشاعت عندئذ مودة الأزرافا كثيرا منها وأكثر النساء من المقود والأقراط اللؤلؤية الطويلة والحواتم الكبيرة وارتدى الفلاحون ما يشبه بنطلون الجولف وكان ذلك مناسبا لعمل الحقل ودلى الصدر قميص يشبه "البول أوفر" يصل إلى الرقبة بلا فتحة وعلى الرأس كاسكت عادية وفي القدم حذاء وشراب طويل يصل إلى البنطلون .

أما اللباس الحربى فقد تغير في أواخر القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر إذ اكتشف البارود ولم يعد للاعظم الحديدية حمايتها السابقة فبس الجند الأشرطة الزاهية والبنتلون الطويل والجاكته الطويلة المفتوحة وأخرمة من الكتف إلى الوسط وفي الحصر بكتنود فرنسا بيان الثورة الفرنسية وارتدوا الأحذية وابتكروا لها الكعب وعنوا بجمعها لمائة المنظر .

أما في الشرق الأقصى فالصين واليابان وكوريا يلبسون ملابس قريبة الشبه بعضها ببعض أهمها جلباب من الحرير المزركش الزاهى الألوان وله اكمام واسعة ويلقون حول البطن حزاما من الفخس العريض في مدة طيات .

ومن ابتداء القرن العشرين لانا كثر تنوع الملابس وأصبح في كل وقت لباس مختلف لكل عمل كذلك ، وكان لما تجود به قرايح الفنانين وما تعرضه المعارض واستوديوهات السينما ومحال إحياءة الكبرى الأثر البارز في انتشار المودة، وقد تعددت طرق النساء في تصفيف شعرهن وانتشرت المجوهرات الرائفة والمقلدة وتنوعت الفناذج . وبما يلاحظ في ملابس الرجال أن الجاكته والبنتلون قد زادا في الطول والاتساع وزاد عدد الأزرار فيهما ووجدت الجيوب الخارجية يجيب المنديل والجيب الداخلى، وظهر رباط الرقبة الطويل إلى جانب البايون كما ظهرت الجاكته القصيرة في حفلات الطعام وتنوعت ملابس الألعاب الرياضية إلى حد كبير ولذات السيدات يرتدين الجاكحات كالرجال .

من تقدم ذكره يتضح أن الملابس وإن تطورت في الامم التي تحدثنا عنها من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر كانت موحدة في الامة الواحدة لم تضرب الفوضى فيها أطباها كما هو حاصل في بلادنا الآن من تعدد الازياء والملابس . تلك المشكلة من المشاكل المعقدة التي لم توجد في بلد من البلاد، ورأى النخاص أن التشريع لا يتبع علاجها لأن تطورها كان للأسباب التي سردناها ولا دخل للتشريع فيها فعسى أن توفق وزارة الشؤون الاجتماعية وهي غنية برجالها العلماء المفكرين إلى وضع حد لها ووصف علاج حاسم إن شاء الله

محمد حسليب